مَن أبكَى حَلَب

اسم الرواية:	من أبكى حلب
اسم الكاتب:	د. محمد محمود أسعد
تصميم الغلاف:	أماني محمود
المراجعة اللغوية:	إيمان صلاح الدين
الإخراج الفنيّ:	جمال عبد الرحيم
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	9109 / 2024
الترقيم الدولي:	978-977-8973-84-6

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/almaktaba79
	01030365801 – 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

من أبكى حلب

رواية

د. محمد محمود أسعد

المكتبة العربية
للنشر والتوزيع
Arabic Library

إهداء

إلى كلّ من يُكفكفُ دمع البلد
إلى كل من يضع حدًّا نهائيًّا لهذا الانتحاب
أُهدي هذا العمل.

أخوكم محمد

إضاءة

تأتي رواية "من أبكى حلب" رصدًا مختزلاً للحياة العامة في مدينة حلب السورية خلال حرب مُحرِقة عاشها بسطاء المدينة بين مطرقة الخوف وسندان التردي.. حياة جعلت المدينة تبكي على أيامها الخوالي وحال أبنائها المساكين الذين لَم يبقَ في حياتهم أي ملامح لحياة هانئة، بعد أن عاش فيهم الخوف وزاد عليهم الكرب وتقنن في حياتهم كل شيء.

لَم تبقَ حلب كما كان يعرفها الجميع، مدينة لا تقبل التقلبات وتُعاند المنطق وتُزهر في كل الفصول.. فلا خريف يرمي عنها الأخضر ولا شتاء يكسوها السواد.

رواية "من أبكى حلب" تحكي قصة مدينة تغيّر فيها كل شيء بعد أن ضربها سيف بتّار جرّد أوراقها وأسقط أزهارها ورماها في برد لا يُطاق وجعل أيامها حُبلى بالنوائب والملمَات.

لطالما قِيل إن القصص الحزينة تبدأ خجولة بدمعة يتيمة لا يراها أحد ثم تتفاقم بدمعات.

ها هو رجلٌ يُضرب فيها بالرصاص في عزّ النهار ثم يلقى الإهمال على أيدي طاقم الإسعاف في مشفاها الكبير ولا يُحاسب الفاعل ولا يُجازى المقصرين وتُسجل القضية ضد مجهول، وها هو رجلٌ أبقى بيته لولده الصغير خشية العَيْلة عليه فأشعل بين أولاده النيران، ورجل آخر أصبح صورة نمطية للإنسان الدرويش الذي فقد وعيه وأصبح يغدو ويروح في شوارع المدينة بدون رهبة ولا حسبان بعد أن ضربه الزمان ضربة قاضية

أفقدته أولاده ثم أكمل عليه زلزال شباط في تدمير بيته فألقياه رميمًا في القاع، وآخرون يمشون كالسكارى وما هم بسكارى ينضحون عرقًا في عز الشتاء، يعيشون حياتهم يومًا بيوم أصواتهم تكاد تسمع، عيونهم دائمًا شاردة في البعيد.

إذا بكتْ حلب، اعلم يا صاحبي أن الخطب جلل فالكبار لا يبكون إلا لمصاب عظيم، فحلب لا تبكي لفرح لأنه أصلاً مولودٌ فيها، هي تبكي على مفقود قد لا يرجع وعلى فيض من أحزان غّيب لحنها وشوّه حُسنها واستُبدل عطرها بروائح البارود والدمار..

تبكي حلب على شوارع توحّلت بالعثرات وجنبات فارقت مباهج الحياة خلال حرب ضروس وجائحة فتّاكة وزلزال مدّمر، فقلّ فيها العير والمير وانتعش فيها التردي والإهمال.

أليس الموت بألوانه، والسلاح بأنواعه، وانقطاع أعصاب الحياة، والتقنين، والغلاء، والنزوح، واللجوء، والتخوين، والخطف أصبحت كلها مبكيات لحلب والبلد.

ويبقى السؤال المهم من يُكفكف دمع حلب ومن فيها؟ من يضع حدًّا نهائيًّا لهذا الانتحاب؟!

رواية "من أبكى حلب" ليست قضية مدينة وحسب، وليست قضية من يعيش القهر والتقهقر فيها، إنما هي قضية بحجم وطن.. مسلسلُها دامٍ لم ينتهِ بعد.

المؤلف

غــروب

بينما كانت شمس المغيب تنحدر مسرعة في مدارج الأفول مودعة نهارًا شتويًّا قارصًا، كان العاملون في حلب ينتظرون ساعة المغيب كي يعودوا إلى منازلهم متعبين عازمين على عدم الخروج منها إلا لطارئ شديد، قبل أن يبدأ الليلُ إرخاء سدوله الحالكة على أحياء المدينة فيزيدها ظلمة وسواد بعد أن تُغلق المحال التجارية أبوابها، وتمسي شوارع المدينة هادئة شبه خرساء.

كان الجوُّ باردًا والسماء مكسوة بغيوم رمادية تُنذر البشر والحجر بوابل من مطر، كانت جلسة أبي علي وراء مقود سيارته السوزوكي وهو عائد إلى بيته تعبًا مهمومًا تدلّ على أنه سائق مخضرم أو لا مبالٍ بالطريق، فالشوارع أمامه وحوله شبه خالية من السيارات والمشاة.

على جانبي الطريق اصطفت أشجارٌ عارية عصفت بها رياح عاتية أسقطت عنها أي احتشام، تساقطت أوراقها كالدموع فآلة الحرب شوهت قوامها وثَقبت لحاءها وأخرجت صدرها للعيان، غير أن معظم جذورها بقيت متشبثة بأرض تُقبلها طيلة الوقت وتعيش معها صلف الأيام.

كانت حلب مدينة كما يعرفها الجميع لا تقبل التقلبات، تُعاند المنطق وتُزهر في كل الفصول، فلا خريف رمى عنها الأخضر ولا شتاء كساها السواد، كانت دائمًا في ربيع لا تعرف الذبول ولا تفارقها المسرات،

حتى ضربها سيف بتّار جرّد أوراقها وأسقط أزهارها ورماها في برد لا يُطاق وجعل أيامها حُبلى بالنوائب والملمَات.

ماذا جرى لهذه المدينة المتمردة؟! كأن الحروب والكوارث قد كُتبت عليها منذ قديم الزمان، تبدأ فيها حروب وتنتهي أخرى، عليها كان هجوم هولاكو ملك المغول عام1259م، وعليها كان حصار تيمورلنك سلطان التتار وإحراقه لها عام1400م، لكنها بقيت حيّة لم تمُت ولم تندثر، فقط في كل مرة يموت فيها الآلاف من الفقراء والمساكين ويخرج منها المئات من التجار والأسياد.

تلك هي الحروب، دائمًا تصنع حياةً جديدة للبشر، حياة متشحة بسواد مليئة بالأحزان، هم ليسوا فيها ولا لها، لكنهم مجبرون أن يعيشوها رغمًا عنهم، حياة فيها مخازٍ وويلات جِسام على الإنسان والبنيان ولا يسلم من أذيتها حتى الحيوان.

حينما وصل لهيب الحرب إلى المدينة كان بركانها قد انفجر في كل أرجاء الوطن، ترامت في غربه الحمم، واستعرت في وسطه النيران، وتصاعد في شرقه الدخان، تعدَّدت رماح الموت في حلب كما تعددت في سائر أرجاء الوطن من شماله إلى جنوبه ومن غربه إلى أقصى شرقه، فمن لم تخطفه ويلات الحرب الدائرة منذ عام 2011 أنهكتهُ ضغوطات الحياة وعصرته أيام القهر، ولئن كُتبت له السلامة من هذا وذاك كان له انقطاع أعصاب الحياة من ماء وكهرباء ووقود، وهبوب رياح الأوبئة وجائحة كورونا، والزلزال الأخير بالمرصاد.

كورونا وزلزال شباط، انتهى الأول وأنهى معه حياة الكثيرين من أهل المدينة بسبب ضعف إجراءات العزل الصحي من قيل السكان وقلة توفر المسحات والأدوية اللازمة من مقويات المناعة مثل فيتامين سي وخافضات الحرارة لعلاج المصابين بالفيروس، ثم جاء الآخر ليكمل على ما تبقى من رمق في حياة الملايين القاطنين في الشمال، فكما وصفه خبراء الجيولوجيا كان زلزال شباط واحدًا من أقوى الزلازل المدمرة في التاريخ لشدته (7.8 درجة) ولطول مدته (خمس وستين ثانية)اهتزت فيه الأرضُ بإذن ربها في شمال غرب سورية وجنوب تركيا في تمام الساعة الرابعة وسبعة عشر دقيقة من فجر يوم الاثنين 6 شباط/ فبراير 2023م، وأصدرت من باطنها أنينًا مرعبًا رافقه ظهور ضوء أزرق كالشفق أجزع جميع من سمع وحضر ظانّين أنه يوم البعث لا ريب، غصّت الشوارع بمن فرّ هاربًا من مأمنه تاركًا وراءه كل أو بعض أفراد أسرته وجميع مكونات بيته في لحظة حاسمة قارصة من ليل بهيم، كثيرون هم من بقوا في أسرّتهم يُغالبهم قدرٌ محتوم قبل أن يكون نومًا أو تجاهلاً، ألوف من المباني السكنية والخدمية منها مستشفيات أتت على رؤوس قاطنيها. قدر مفاجئ أضنى الملايين، عشرات الآلاف من قضوا تحت الأنقاض، وعشرات أخرى جرحى تم توزعيهم على المستشفيات وأماكن الإيواء.

لم يكُن زلزال شباط الأخير هو الأول من نوعه في حلب ولكن سبقه اثنان مدمران أولهما في عام 1138م والثاني في 1822م كون أن المنطقة برمتها تقع على الحدود بين الصفيحتين التكتونية الأناضولية والعربية.

*****

حلب أم الجميع، بنت بلاد الشام المدللة وزهرة الشمال السوري وتاجه المرصع بلا منازع، أم الأبواب التسعة، والمدينة المترامية الأطراف، الشهباء الزاهية والموغلة في القدم التي تعتبر واحدة من أقدم المدن المأهولة في العالم، مدينة القلعة بعظمتها، والحديقة العامة بجمالها، والسويقة (المدينة) بتنوعها وتفرعها، والجامع الأموي الكبير (جامع سيدنا زكريا) بقدسيته، وسوق التلل بموضاته، والعزيزية بهدوئها، والشهباء برقيها، وعبد الرحمن الكواكبي بفكره، وخير الدين الأسدي بتأريخه.

حلب الأم الجامعة للعلماء والكُتّاب والشعراء والفنون والصناعة والتجارة والغزل والنسيج، أم المساجد والكنائس سليلة التاريخ والبطولات صانعة الأمجاد أصبحت تأنّ ألمًا من ويلات حرب ضروس اشتعلت نيرانها منذ عقد ونيف ولم تنطفئ بعد. حرب أكلت اليابس والأخضر وجاءت على كل جميل في حياة السوريين.

كانوا يقولون إذا بكت حلب بكى معها العالم، للأسف بكت حلب وانتحبت لكن سال عليها لُعاب العالم، فاضت دموع حلب ولم تُزرَف من أجلها دمعة حتى ولو كانت من دموع التماسيح، بكت حلب ولم تنقطع شعرة من قلوب أحد، بكت حلب وصمت العرب فلا الألم واحد كما يدعون ولا الجرح مشترك.

ماذا جرى لحلب وناسها الطيبين، فجأة هبت عليهم رياح الاضطراب والحرب دون نذير، أصبح الناس فيها يمشون كالسكارى وما هم بسكارى ينضحون عرقًا في عز الشتاء، عيونهم دائمًا شاردة في البعيد،

أصواتهم تكاد تسمع، ووجوههم لفحها لهيب الحرب، يسيرون كالتائهين، إلى أين؟ لا يدرون، أيّ قدر أصاب هذه المدينة فغيّب لحنها وشوّه حُسنها واستُبدل عطرها برائحة البارود. ذئاب العالم تكالبت عليها وجمعت كيدها وتهافتت إليها لاهثة مستأسدة بالحصص، كم أوغاد هم عندما صاروا يعطون أهلها أصحاب الجود الفتات من الطعام!

يخطئ من يظن أنهم جاؤوا للحل ووضع حدًّا للحرب، الصواب أنهم جاؤوا للإمساك في خيوط الحرب وتسييرها حسب أهوائهم وأهدافهم، حرب لاحقت غزلان البلد في كل مكان، منهم من هرب وأدبر ومنهم من بقي وتحسّر.

حلب كسائر مدن وريف الوطن تبكي على دمار البلد وفراق الولد وهلاك الحرث وجفاف الضرع ولم يبكِ معها أحد. تبكي على صباحٍ أصبح لها رعبًا ونهارٍ غدا جوعًا وليلٍ أمسى خوفًا ولم يبكِ معها أحد، الأخرون أوصلوا لها فتات الطعام ومعسول الكلام لكنهم لم يسعوا جادّين إلى وضع حدٍ للحرب وإطفاء نارها.

صبرًا يا حلب، لك الله يا أم الجميع! أخطأ مرة من وصف مكة بأنها مركزٌ للأرض، وأصاب ألف مرة من رأى فيكِ وفي سائر الوطن محورًا للأرض وبركانها الثائر وبحرها الرؤوم وقلبها الصابر.

*****

عندما تبكي حلب، اعلم يا صاحبي أن الخطب جلل فالكبار لا يبكون إلا لأمر عظيم، أبدًا هي لا تبكي لفرح لأنه أصلاً مولودٌ فيها، دموعها دائمًا مقرونة بفيض من الأحزان، دموعها عزيزة عليها كدموع الصناديد من الرجال.

تبكي حلب لأن أبناءها يبكون همًّا وضيقًا من يوم مشؤوم وغدٍ مكلوم وانقلاب حال.

تبكي حلب لأن شوارعها توحلت بالعثرات وفارقت جنباتها مباهج الحياة وقلّ فيها العير والمير وانتعش فيها القبح والإهمال وأمطرتها الأيام بوابل من غضب حتى أصبحت ومن فيها ليسوا بخير.

نعم لم يكُن سواد حلب يومًا ما إلا من سواد الحروب والكوارث التي تقع عليها، فيها يتمرمر أهلها وتضيق فيهم الأرض بما رحبت فيسعوا هاربين في أرجاء المعمورة مُجبرين غير مخيّرين بحثًا عن مكان آمن.

*****

لم تكن حلب إلا وطنًا جميلاً، وحضنًا حنونًا، وقلبًا رؤوفًا، وجبلاً شامخًا يُقارع الخطوب، وبحرًا عميقًا يُغرق الآثمين، وصرحًا وارفًا يُعانق السحاب، لكن طافت لعنةُ الحرب الدائرة عليها فأغرقت فيها القمم رغم تفوقها المعهود على غيرها في الصناعة والتجارة، للأسف تراجعت المدينة وخسرت الصدارة بعد أن تناقص عدد سكانها ونزح عنها مئات الآلاف، سواء بنزوحٍ داخلي إلى أماكن متفرقة من وطن كان يتسع يومًا ما للجميع

من أهل وأشقاء وأصدقاء، لكنه أصبح ضيقًا على ساكنيه ليس لصغر في مساحته الجغرافية التي تزيد عن 185 ألف كم مربع وإنما لتقطيع حصل في أوصاله ولعناء شديد في التنقل بين أرجائه، أو بلجوء خارجي دفعوا له الغالي والنفيس في سبيل الولوج إلى دول متفرقة من العالم كان أرخصه تكلفة وأسهله عناء اللجوء إلى دول الجوار، تركيا ولبنان والأردن، وأكثره خطورة وأغلاه تكلفة اللجوء إلى القارتين الأوروبية والأمريكية الشمالية طمعًا في الحصول ولو بعد حين على مأوى آمن ودخل مادي مستمر وجواز سفر جديد يُرحب بحامليه في معظم مطارات العالم، لجوء يساعدهم على مواجهة متطلبات الحياة والهروب من رزايا حرب مستعرة أفرغت جيوب الميسورين منهم فكيف الحال مع المتعسرين.

لم تكن المدن يومًا ما كالأرياف فيما يخصّ الخارجين منها أيام السلم والحرب، ففي أيام الحرب مهما كثر الخارجون من المدن للجوء أو لنزوح يبقى القسم الأكبر منهم مقيمًا فيها لأسباب عدة أهمها: القبضة الأمنية التي تُوليها الحكومات للمدن قياسًا للريف وخاصة الكبرى منها؛ لذا فالكثيرون في المدن عادة لا تشغلهم الصراعات كثيرًا كما تشغلهم أعمالهم وأموالهم ومَيلان الكفة، ثم التفاوت المعاشي بين غني وفقير، فإثر أي طارئ يحل على المدن يحشد الميسورون من قاطنيها جُل طاقاتهم ويرحلون عنها، أما غير الميسورين أو البسطاء وهم الأغلبية الساحقة من أهل الدخل المحدود الذين يعيشون تحت خط الفقر (poverty line) العاجزون عادة عن توفير تكاليف متطلباتهم المعيشية بأي شكل لاستمرارية الحياة من حيث المأكل والملبس والرعاية الصحية والمسكن

يبقون في أماكنهم مثل الجبال الراسيات رغم كل أشكال التنغيص التي يتعرضون لها يوميًّا، فمعظمهم لا يملك الوسيلة والتكلفة للرحيل؛ لذا تراهم مستمرين في العيش في مدنهم مجبرين رغم وجود السبب الباتر لذلك من فقدان للأمن والسلامة وتصاعد جنوني في الأسعار وصعوبة فائقة في توفير الحوائج وتدني مستوى تقديم الخدمات العامة من ماء وكهرباء وغاز وخبز الأمر الذي يزيد في الطين بلة ويزيد في تدني أحوالهم المادية والمعاشية. بينما في حال السلم كان إذا ما انقطع الدخل عن عائلة في المدينة لتقاعد ولي أمرها أو فقدان لمصدر دخلها واستحالة إيجاد عمل أو دخل بديل انقطع الرابط بينها وبين المدينة تسرع تلك العائلة بالرجوع إلى أصلها في الريف باعتبار أن معظم سكان المدن ينحدرون من ريف رحلوا عنه بالأمس القريب أو البعيد؛ طمعًا بوظيفة أو عمل أو علو كعب كانوا يمنون أنفسهم بتوسيع جيوبهم ومداركهم وبحياة أفضل. بينما في الحروب يختلف الأمر تمامًا لأن من يريدون الرجوع إليهم في الريف كانوا قد سبقوهم بالنزوح عن قراهم وتوزعت عناوينهم بين نزوح قريب متقطع أو لجوء طويل لا لخوفهم الأكثر من أهل المدينة وإنما لمجاراة السائد ومحاكاة الآخرين في الخوف الجماعي، لذا لم يكُن لبسطاء المدن أي خيار إلا البقاء في مساكنهم رغم كل ما يجري حولهم من خيبات ودمار.

تختلف الصورة في الأرياف عنها في المدن باعتبار أن معظم أهل الريف الواحد أقرباء قرابة دم أو نسب ابن عمك ابن خالك يعيشون على التقليد الأعمى لبعضهم بعضًا سواء في عمل يمتهنونه أو سفر يقصدونه

في حال السلم والحرب، لذا قيل إن القاسم المشترك بين أهل المدن التنوع والاختلاف بينما بين أهل الريف التشابه والتقليد.

*****

مثالٌ حي لبسطاء حلب المدينة، أبو علي سائق مكافح يستقبل يومه مع الإشراق في سيارته الصغيرة بأمل ويودعه مع الغروب بإخفاق، استمر الرجل في سكنه الشعبي البسيط في الحارة الجنوبية من حي الكلاسة بالقرب من المدرسة الرحيمية والقسطل الذي انهار جراء الزلزال الأخير لهشاشة تربته الكلسية وسوء البنية التحتية لشبكات الصرف وتسرب مياه المجاري، مقنعًا نفسه أولاً ثم عائلته أن "اللي بده يقدره الله بده يصير" و"نحن لسنا أحسن من غيرنا"، وبقي معهم وحولهم جميع من يشاركهم ظروف القلة والشح في الموارد مقتنعين أن النوم تحت سقف مهترئ وضمن جدران رطبة و"تحت الجلة والطوب" أفضل بألف مرة من خيمة زرقاء تعصف بها أنواء الشتاء من كل جانب.

أبو علي رجل سوري من حلب تجاوز الستين بثلاثة أعوام وسيط القامة، ليس بالطويل الفارع ولا القصير المانع، نحيل الجسم في غير هزال، أسمر الوجه من أثر السنين العجاف التي مرّت عليه، يبدو وجهه كأنه مُشربًا بشيء من الصفرة لكن فيه قليل من الحيوية، ترى دائمًا في وجهه البساطة والدروشة، ذقنه مكورة ولحيته بيضاء خفيفة وشاربه هتلري يسوده البياض (شارب يغطي منطقة ما تحت المنخرين. أما حوافه الجانبية محلوقة)، يعلوهما شعر رأس أبيض غزير، عيناه ذابلتان تعكس ظروف القهر الذي يعيشه المواطن السوري خلال الحرب.

رغم كل ما اعترضت أيام أبي علي من قلة في المال والفرص امتاز الرجل بعفة لم تجتمع عند كثيرين في هذه الأيام، دائمًا يبدو لناظريه هادئ البال مرتاح الضمير. اعتاد ارتداء صدرية الخاكيه بلا أكمام (جاكيت الصياد) أثناء عمله في شوارع حلب وريفها، فهو صاحب سيارة سوزوكي صغيرة يعتل وينقل عليها الأحمال من مكان إلى آخر بأجر يتعيش عليه في بيته الأرضي الصغير (حوش)، لم يشتكِ منه أحدٌ لا من قريب ولا من جار ولا من صديق لطيب معشره وهدوئه الرصين، قبل الحرب والتصاعد الجنوني للأسعار كان مفرطًا في التدخين، لكن تركه بإصرار بأول رمضان منذ أعوام لا كرهًا فيه بل لغلاء سعره وندرة وجوده. كان يعود إلى بيته مساءً حاملاً ومحملاً بما لذ وطاب من مأكولات ومكسرات ليقضي مع عائلته سهرة حلبية مليئة بالبهجة والسرور، لكن بعدما اندلعت الحرب وانحسرت التجارة وقلت الأعمال في المدينة خفّت الطلبات على عمله ولم يبقَ في حياته أيّ ملامح لحياة هانئة ولا لعمل دؤوب فازداد عليه الكرب كما ازداد على غيره وتقنن في حياته كل شيء كما تقنن في حياة الجميع.

صحيح أن في أيام الصيف وفي أيام الشتاء، في أيام السلم وفي أيام الحرب لم يتوقف نهائيًّا عمل أبي علي بالتنقل بسيارته الصغيرة بين أرجاء مدينة حلب وحولها، لكنه تدنى لحدوده الدنيا في أيام الاضطرابات المتأججة.

جاءت الحرب وتدرج نزول المستوى المعيشي لحياة أبي علي مثل عموم السوريين، حاول الرجل أن يُبقي نفسه مشغولاً بعيدًا قدر الإمكان عن شدة الإدراك العالي للواقع والنقاش العقيم مع أقرب الناس إليه، فحينما كانت تخفق عليه الهموم بشدة ويشعر بغصة الخيبة يلوذ بالفرار إلى الفراش باكرًا شاكرًا حامدًا رغم كل شيء فيه ليقنع نفسه على أقل تقدير أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، يستلقي في فراشه لساعات قد تطول وقد تقصر ويتقلب فيه قبل أن تأخذه غفوة على الأغلب يضطرب فيها ويهمهم ثم يرتجف مثله مثل من يحمل دلوًا مملوءًا بالماء (للشفة) على رأسه كلما اهتز فيه نضخ عليه الدلو (كبّ) شيئًا عليه، فيستيقظ مفزوعًا كردة فعل لاضطرابات في الإشارات الكهربائية الصادرة عن الدماغ.

رغم كل ما يعانيه من تعب وهم قبل نومه يستيقظ الرجل وقد تسلل الأمل إلى قلبه من جديد مع إشراقة شمس تحتضن له النشاط فيتجدد سعيه للرزق في يوم جديد، في عمله تراه دائمًا مطرقَ الرأس شريدَ الذهن لا يرى من دروب حياته إلا شواغله وهمومه، له من الأولاد ابنان وبنت.. عليٌ وحسن وأمينة.. كلهم تزوجوا وخرجوا عنه إلا الصغير حسن الولد المدلل.

الشاب حسن تجاوز الخامسة والعشرين بقليل لكنه ما زال مثالاً حيًّا للاتكالية على الوالدين لا يعمل شيئًا ولا يتحمل أيّ مسؤولية يميل إلى الأنا ومن "بعدي الطوفان" دائمًا شمسه عالية وأحيانًا لا تشرق، يرعد ويزمجر اذا تأخرت عليه وجبة عن موعدها ويغضب ويثور لأتفه

الأسباب، أما ابنه البكر عليٌ الذي قارب الثلاثين، له من الأولاد اثنان من البنين هادئ الطبع، حسن العشرة، وضّاح المحيا، لين العريكة، باسم الثغر لم تغِب بسمته مع من حوله رغم كل ما هو فيه من ضيق، راضٍ بما هو فيه ترك دراسته الجامعية إثر اشتداد الاضطرابات في المدينة ليلتحق بعمل يعيش منه وأسرته فتراه يتنقل بين المشاغل كما يتنقل النحل بين الزهور لا لعذر فيه وإنما لاستحالة استمرارية عمل في زمن الحروب، أرهقه استئجار بيت قريب من دار أهله لكنه أبى أن يتملق أحدًا منهم للرجوع إلى السكن معهم لإصرار أبيه على الخروج لتزويج حسن رغم كل ما يراه من محاباة والده لأخيه الصغير حتى أصبح يغار منه لكن بصمت.

*****

تستمر حرب الوطن وتعمّ رزاياها على من ترك وسافر خارج الحدود وعلى من بقي وصبر لكن بنسب متفاوتة، ويبقى الإنسان بجسده، وقِيمه، وسلامته، وقوته، ثم البنيان العمراني والبنى التحتية في البلد هم أكثر المتضررين.

قالوا إن المدن تتطور وتنتقل بالتدريج من طور إلى طور أفضل، سمعنا عن مدن نظيفة ومدن خضراء ومدن ذكية تسعى إلى خدمة الإنسان كمحور في عمليه التنمية والاستدامة، لكن ماذا عنك الآن يا حلب؟!

كنا نسمع باستغراب لما يحدثنا فيه آباؤنا عن شراء حطب التدفئة أيام الخمسينات والستينات من القرن الماضي في شهور الصيف

لاستخدامها في مواجهة برد الشتاء في شهور كوانين وشباط وكيف كان بائعو الحطب جمَّالة جوَّالين وحطابين فقراء يأتون إلى المدينة وينادون على بضاعتهم بصوت عالٍ في الحارات والشوارع، تُعاد الصورة اليوم لكن بحقيقة وألم على ما وصلنا إليه وليس بذكرى، كأننا رجعنا إلى العيش في تلك الأيام العجاف شئنا أم أبينا طالما أنه غاب عنا ما هو آمن وجميل. رجوعنا للستينيات لم يكن حبًّا لذكرى مضت بجماليتها وطيبتها لكنه رجوع بسخط وخيبة، رجوعٌ لم يكُن فقط في استجماع حطب وإنما أيضًا لأيام فانوس وببور وطبخ على الحطب وخبز على التنور وركوب للعربات المجرورة بخيول، رجوعٌ أصبحنا فيه ننهل الماء من الحفر (جُب) وننتظر هدايا السماء لملئها من جديد، رجوعٌ صرنا نستضيء فيه بـ"أمبيرات" كسرت ظهور الرجال بأسعارها وعدم التزام أصحاب مولداتها بأي برنامج ثابت للتشغيل حتى أصبح قطع النور ووصله محكومًا بأهوائهم وأصبح المشتركون أسرى لهم يتحكمون بمساحة الضوء والظلام عندهم دون أي رقيب أو حسيب.

كنا نسمع عن أعصاب الحياة وأشكالها المتعددة مثل الماء والكهرباء ولا نقدر أهميتها البالغة في تلبية الاحتياجات وتحقيق المنافع في بناء الأمم والصروح، لكن بانقطاعها عرفنا قيمتها خاصة بعدما تفاقمت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية وتزايدت الإضرابات الأسرية إثرها.

ألا ينتج عن انقطاع الكهرباء عن المدن تراجعٌ في تقديم الخدمات إلى مستويات متدنية جدًّا وخاصة في المؤسسات الخدمية مثل المستشفيات والمدارس، والجامعات، والمخابز، والمخابر، والبنوك،

والمعامل، ومضخات المياه، فينخفض الإنتاج، وتتكاثر الأوبئة، ويعم الجهل، وترتفع نسبة البطالة، وتشح المياه، وترتجف المفاصل من البرد وتقل الحركة وتغيب البركة، وتكثر النفايات في الشوارع، وتظهر العصبية الزائدة بين السكان مما يؤدي في أغلب الأحيان إلى توليد مشاكل اجتماعية جديدة.

أليس في انقطاع الكهرباء عن المدن تواجد مستمر للرجال في بيوتهم الضيقة فتتزايد اعتراضاتهم على الشاردة والواردة في وجوه زوجاتهم وأولادهم فتتضاعف المشاكل العائلية بينهم؟ ويزيد الاستهلاك لمخزون الطعام قبل خرابه في الثلاجات؟ وتتثاقل الحركة، وتتفاقم الأزمات الصحية، وتزيد نسبة التكاثر عند البشر؟

أليس في انقطاع الكهرباء عن المدن تغيب كامل لدور كاميرات المراقبة في المحلات والمعامل والشوارع فتستحيل المراقبة عن قرب، وتفرغ الشوارع من السيارات، ويغادر أصحاب المحلات متاجرهم والمعامل منشآتهم مبكرًا ويتوقف العمل، فيأتيها اللصوص لنهبها بعد معاينتها نهارًا وتقدير بضائعها عددًا وقيمة؟

أليس في انقطاع الكهرباء عن المدن توليد لمشاكل كثيرة منها تعطيل الاتصالات ووقف ضخ المياه وبطء حركة المواصلات، وفساد الطعام وتلوث المياه، وعدم قدرة المشافي والمراكز الصحية والعيادات على استخدام أجهزتها الطبية، بالإضافة لتوقيف عجلة الصناعة والإنتاج وإهدار العملة في سبيل شراء البديل وزيادة الضغط على استخدام الوقود؟

قد يقول قائل: أليس الحل في "الأمبيرات" والطاقة الشمسية؟ هل يظن القائل إنه حل مناسب للجميع كونه لا يصلح إلا للإنارة وكسر ظهر مستخدميه بأسعاره المرتفعة وجعلهم محكومين تحت رحمة صاحب الأمبير أو طلوع الشمس في أيام الشتاء.

هل أصبح حل معظم المشاكل المجتمعية من سرقات، واختطاف، وشجار، وطعن، ورذيلة، وبطالة، وطلاق في يد من يُعيد قاطع الكهرباء أو بديله إلى وضعية التشغيل أم بيد من يحمل غصن زيتون وينثر الياسمين بدلاً من البارود في فوهات المدافع؟

*****

كعادته في كل صباح جديد يُساهم أبو علي مع رجال حلب في أداء معزوفة عيش المدينة فيتشاركون فرحًا في رفع ستارتها وقت الشروق ويألمون في إنزالها وقت الغروب، في اليوم الأخير من شهر شباط خرج الرجل من بيته ولسانه يردد "اللهم إنا نسألك صباحًا مُبشرًا، جالبًا لنا كل خير، دافعًا عنّا كل شر" وبيده إبريق مملوء بالماء الساخن لتسريع تشغيل وإحماء سيارته. ثم السير في الطريق الأثير على نفسه باتجاه سوق الهال الجديد في الراموسة مكان بدء عمله اليومي مرورًا بشارع جمال عبد الناصر متوجهًا باتجاه بستان القصر ثم جسر الحج وصولاً إلى سوق الهال من خلال العبور بحي الأنصاري شرقًا وغربًا.

قبل الحرب كان يُسعد أبا علي خلال سيره المتأني في تنقلاته الصباحية والمسائية مشاهدُ الحياة في طرقات حلب المفعمة بضوضاء سياراتها وزمامیرها وازدحام أهلها وأبوابها التسعة وأحيائها وحاراتها

ودكاكينها وحدائقها وأسواقها ومساجدها وكنائسها وقلعتها الأم، كانت له تلك المشاهد اليومية سلسبيلاً جاريًا في قلبه جريان الجدول الرقراق في أرض خصبة .

يُسْرُ حال الرجل وصفاء باله وعشقه لمدينته، دائمًا يُعيد له حلاوة الماضي التليد لحلب وعيشها الرغيد، تنعشه رائحة التوابل المتأصلة في سوق العطارين حينما كان ينقل إليه أو منه البضائع بعد أن يصل إليه من يمين المسجد الأموي (مسجد سيدنا زكريا) ثم يلتف يسارًا ليجد نفسه داخل سوق كبير يختص في بيع البزور والتوابل والحبوب، للأسف فَقَد ذلك الانتعاش حِدته بعدما تنوّع اختصاص السوق شأنه شأن غيره من أسواق المدينة مثل سوق العِبي، وسوق الحِبال، وسوق الخياطين بعد أن صار يُباع فيه النسيج إلى جانب التوابل. فكلما كان يأتيه الرجل أيام الحرب والاضطرابات تفيض نفسه بذكريات الأيام الخوالي وخيراتها وأنسها الجميل.

تردي الوضع الأمني في المدينة أجبر الرجل على تسريع سلوك دروبه مهما كانت قصيرة بعدما اختلطت روائح الزهر والشجر مع روائح البارود والموت في أنوف أهل المدينة وغابت عن مسامعهم أصوات الراحلين مما جعل ما كان من بهاء أيام وحضور لمدينتهم شريطًا من الذكريات.

اعتاد الرجل على الخروج في أيام الحرب بحذر شديد للبحث عن رزقه اليومي في نقل البضائع والحمولات الخفيفة في أرجاء حلب المدينة أو في ريفها القريب، قبل الحرب كان يخرج باكرًا قُبيل الإشراق ويعود

متأخرًا بعد العشاء، لكن في فترة الحرب تعوّدَ أهل بيته على رجوعه قبيل المغيب تجنبًا لأي خطورة أو مفاجأة لا تُحمد فيهما العقبات.

في المساء الأخير من شهر شباط لم يعُد الرجل كالمعتاد، قلقت عليه زوجته ونادت على ابنها حسن عدة مرات ليخرج ويبحث عن أبيه.

بعد سيل من النداءات يخرج حسن صاحب الخمسة وعشرين عامًا من غرفته الزوجية، ويقف منتصبًا ملوّحًا لأمه بأصابعه أنه استيقظ وجاهز لتلقي أوامرها التي لا تنتهي.

- يا بُني اذهب وابحث عن أبيك، لقد تأخر، ليس من عادته التأخر بعد المغرب

ببرود يرد عليها حسن:

- كل "غائب وحجته معه"، تراه تأخر قليلاً لأنه واقف على الدور الطويل بإحدى الكازيات أو أنه يبحث عمن يُبدل له جرة الغاز.
- والله يا بُني قلبي ليس مطمئنًا عليه.

مرت ساعة أخرى ولم يرجع أبو علي إلى البيت فزاد قلق زوجته عليه وصاحت على ولدها حسن بأعلى صوتها:

- "لسه ما تحركت وقمت"؟
- بعد قليل سأذهب، عم صحصح.
- يا ابني الدنيا ليست نوم، في الحركة بركة.

- على ظني أن العلماء ينصحون بالتعتيم لإطالة النوم، إي عنّا التعتيم طبيعي، كهرباؤنا معظم الأوقات مقطوعة والشمس قليلاً ما تستيقظ في شباط.
- كفاك "فزلكة"، اذهب وابحث مع أخيك عن أبيكما، أكيد هنالك سبب كبير لتأخير عودته. يا رب لطفك!
- أفّ.. خلص.. أنا ذاهب.

عمتم مساءً أيها النائمون، إن أردتم النوم أكثر فلا مشكلة فالحل البسيط، فقط عتموا المكان، أو لا تتعبوا أنفسكم وتعتموه فهو بالأصل معتم تعتيمًا طبيعيًّا فلا كهرباء فيه ولا شمس فمن أين لكم أن تستيقظوا.

خرج حسن يتمطى نحو بيت أخيه في نفس الحي وما كان ليخرج لولا إلحاح أمه.

*****

ذهب الشابان عليٌ وحسن مهطعين باحثين عن أبيهم، أول وجهة لهما بالبحث كانت منطقة سوق الهال وشرعا بالسؤال عن أبيهما هناك كالمجانين بسؤال هذا والاستفسار من ذاك وخاصة سائقي سيارات النقل الصغيرة. من أحد أصحاب محلات سوق الهال جاءهم الرد كالصاعقة:

- هل والدكم أبو علي صاحب السوزوكي، إن كان هو فقد أصيب قبل قليل بطلق ناري في الكتف إثر عراك بين متشاجرين على الدور.

تساءل علي بلهفة:

- طلق ناري!! يا لطيف، أين هو وكيف حاله؟ ومن ضرب عليه؟ وأين الضارب؟

ردَّ عليه صاحب المحل:

- نقله من كان متواجدًا من أصدقائه بحالة إسعافية إلى مستشفى الجامعة كونها الأفضل حاليًا في المدينة وإن شاء الله حالته بخير، ابني اذهب واطمئن على أبيك، الآن ليس الوقت للانتقام، إن شاء الله إصابته خفيفة

ردّ عليه بسرعة:

- إن شاء الله، يا رب!

طلق ناري أصابه في الكتف، ماذا لو أصابه في صدره أو رأسه، غياب الحزم الأمني وضعف الرقابة وتردي القيم الأخلاقية وكسر تابلوه الممنوعات كلها أسباب دفعت بالكثيرين من صغار وكبار إلى حمل السلاح بحجة الدفاع عن النفس بعد أن صار معروضًا للعلن في المحلات التجارية، كان لأبي عليٍّ نصيبٌ من نتائج تلك الأسباب رغم أنه رجلٌ بسيط ويرى في اعتزال الناس غنيمة فلم يتدخل قطّ في شؤون أحد ليتدخل في شؤون الحرب الدائرة في الوطن شأنه شأن ملايين السوريين الذين لا ناقة لهم فيها ولا جمل، لكن رغم كل هذا كانوا لها وقودًا وضحايا فان لم تنَلهم سهامها فتصرعهم، نالتهم مضاعفاتها من إهمال ونزوح وتضعيف حال.

عليٌ وحسن، أخان تربيا في بيت واحد ورضعا من صدر واحد هما قريبان بالعمر لكن بعيدان بالتفكير، كبيرهما شبه صامت من نوعية "اللي يرضى بعيش" والثاني لا يعجبه أحد ويرى نفسه فوق الجميع، اختلفا بالرأي حول ما يجري من أحداث متصاعدة في البلد بدأت في الجنوب بغصن زيتون ثم انتشر لظاها في عموم جغرافية الوطن قابلتها ردة فعل قاسية لم تكن متوقعة زادت في الأمر سوءًا وأدّت فيما بعد إلى استخدام السلاح وتدخل خارجي واسع، تصاعد وتيرة الأحداث زادت الشحنة بين الأخين وكانت قاب قوسين أن تنفجر لولا تدخل والدهما في حسم الأمر نهائيًّا منذرًا إياهما بعصبية بالغة وغضب جم إن ركضا وراء التأجيج آمرهما بالرضا بالمقسوم والتسليم بالقضاء خيره وشره والمشي مع التيار كيفما كان.

أمرهما بقلب الأب الخائف على أولاده من الانجراف وراء هذا وذاك وقال لهما خلال اضطرابات الكلاسة: "يا ولدي في بلدنا كُسر غصن الزيتون ونُصب المدفع، الكل صار يصول ويجول وصار من فرعون فراعين، كثر الموت بسبب وبدون واشتدت الأهوال، في بلدنا صارت شلالات الدم لا تنضب، حذارِ من عاطفة تؤدي بكما إلى الجحيم".

إن توفر السلاح بشكليه الخفيف والثقيل سواء أكان جديدًا أو مستعملاً، من خلال كسب برشوة أو بسرقة زاد في الطين بلة فغيّبَ مطرقة العدل وحَيّدَ صوت الحكمة وأسكتَ يقظة الضمير وزاد الواقع المرير شحنًا ورعبًا وأدّى إلى نشوء ظواهر إجرامية جديدة بالمجتمع منها

الخطف و"التشويل" وطلب الفدية وتعظيم قيمتها إذا ما كان المخطوف دسمًا وصاحب مال أو جاه.

*****

بسرعة البرق استقل الشابان سيارة أجرة بعد أن سألهما سائقها:

- إلى أين يا شباب؟

أجابه عليٌّ:

- بسرعة "الله يخليك" إلى مستشفى الجامعة.
- حاضر.

انطلقت السيارة بهم من سوق الهال إلى مشفى الجامعة، كان أمام السائق عدة خيارات من الطرق ليسلكها كي يصل بالراكبَين إلى مقصدهما، (طريق وسط سيف الدولة.. الكرة ثم الجامعة، أو طريق المحلق.. الصنم ثم الكرة ثم يسارًا إلى ساحة الجامعة، أو طريق المحلق تقاطع سليمان القانوني ثم يمينًا إلى الجامعة)، ولكن باعتبار أن الوقت ليلاً والشوارع شبه خالية ومظلمة إلا من أنوار بعض السيارات المارة على عجل، اختار الطريق الأقصر، طريق المحلق مرورًا بإستاد الحمدانية (إستاد حلب الدولي) ثم الانحراف يمينًا عند دوار الصنم باتجاه صلاح الدين ومركز المدينة (شارع الحمدانية) مرورًا بقصر الضيافة على اليسار، وعند دوار الكرة المشهور بطوابقه الثلاثة الاتجاه يسارًا ثم النزول إلى شارع طه حسين في منطقة الفرقان ثم ساحة الجامعة حلب ومشفاها التعليمي.

لأن ضربات قلبيهما كانت تُسمع له، والارتباك باد في عيونهما، في الطريق سألهما السائق:

- أراكما ملهوفين يا شباب، عساه خيرًا؟
- أبونا في المستشفى.
- خير، هل أجرى عملية؟
- لا، طلق ناري .
- يا لطيف، الله يلعن الشيطان، صار الكبير والصغير يحمل سلاحًا.
- الله يلطف.
- إن شاء الله خفيفة، ادعوا له.
- إن شاء الله.
- والله يا شباب بهذه الأوقات، الواحد لازم يكون حذرًا، لأن ولاد الحرام ازداد عددهم، وكأن مخافة الله قلت عند البشر

ردّ حسن بامتعاض شديد من حديث السائق

- أسرع أكثر.
- والله داعس على الآخر، لكن للسيارة طاقة محدودة، كما تعرف أن معظم الكازيات صارت تغش البنزين لأنه قليل فتخلطه بأشياء أخرى، يا ليتهم يغشونه مثل أول ويضيفوا له الكاز بدل الزيت المحروق

فأجابه حسن:

- بس البنزين قليل؟ ماذا عن الكهرباء والماء والغاز و و و...

- "خيوه" عندما تكون الموارد قليلة ومحدودة فما هو الغلط بالتقنين وتخصيص الصرف حسب الحاجة الملحة، وإعطاء المدافعين عن البلد الأولوية في كل شيء؟

تلملم عليٌ في جلسته في الكرسي الأمامي من السيارة ومدّ يده إلى أخيه حسن في الكرسي الخلفي ونكز إحدى رجليه بإشارة منه ألا يطيل النقاش مع السائق خوفًا عليه فمن الواضح أن السائق من أصحاب الباع الطويل في الكتابة والوشي الذين يسعون لتوريط المرء في الكلام الذي يريدون حتى تجري لعاب أقلامهم على ورق أسود بلون وجوهم.

رغم كل ما هم فيه من حِيرة وخوف على وضع أبيهما، وبينما هو جالس جانب السائق، شرَد ذهنُ علي وأطال النظر في شوارع حلب شبه الفارغة، والمحلات المقفلة، وقارن بين أمسها الجميل وواقعها الكئيب، وقال في نفسه:

"يا حسافة عليكِ يا حلب، كم كنتِ جميلة بهية عندما كانت شوارعك مزدحمة في كل الأيام والفصول وكأنك كنتِ في عيد دائم، كانت أيامك يا حلب، للأسف كم أنتِ كئيبة وغامضة الآن، فحالك عسير، وشوارعك موحلة وفارغة وناسك تائهون شاردون، للأسف أصبحتِ مخيفة مثل المقابر، سكانكِ بلا حراك. أصبحنا فيكِ أشبه بورق الخريف نتساقط هنا وهناك دون دراية من أحد ولا اكتراث، أصبحنا فيكِ أشبه بورق اللعب (الشدة) يعبث فينا اللاعبون كيفما يشاؤون. رحمتك يا رب، كانت إذا بكت حلب بكى معها كل العالم، كانت

إذا بكت حلب غابت الشمس وأظلمت الدنيا وأوجفت القلوب، لو يعلم الأمس ماذا جرى بكِ يا حلب، لبكى معك وانتحب".

مقارنة خاطفة أخرى جاءت لبال علي بين الهدوء المقيت التي تشهده شوارع المدينة وهم في طريقهم إلى مشفى الجامعة وبين ما كانت عليه أيام العز حينما كانوا يقومون فيه مثل معظم أهل المدينة وخصوصًا من يمتلكون سيارة خاصة مهما كان نوعها من نزهات في ليالي الصيف إلى مناطق قريبة على طول المحلق الدائري والمقاصف السياحية المنتشرة على طول الطرقات السريعة بين حلب والمدن الأخرى وخاصة طريق دمشق، ليالٍ كانت تعج فيها شوارع المدينة ضجيجًا بالسيارات حتى الساعات الأولى من الصباح هربًا من درجات حرارة مخزنة داخل أبنيه أسمنتية لا ترحم، ليالٍ يُصبح فيها النهار ليلاً والليل نهارًا.

أبدًا، لم يكن أهل حلب كما يظن البعض أنهم أهل تجارة وصناعة وسعي دؤوب نحو الأفضل وحسب إنما هم أيضًا أهلٌ للفرح والسرور في أيامهم ولياليهم، يعطون لكل شيء حقه وزيادة.

آه وألف أه عليكِ يا حلب، في حضورك كانت الدنيا تُلملم أشلاءها المتناثرة وتجلس بعيدًا عن دروب الحياة، في حضورك يا حلب كان العالم يصمت ويستكين ويُلملم رجليه احترامًا لكِ، كلنا ننتظر بزوغ شمسك من جديد لتعود لنا الحياة. فحالنا لا يسر إلا الأعداء والمتربصين بعد أن جفت عندنا الموارد وقلت الموجودات وخرج من خرج من ميسورين وأصحاب أموال وكفاءات وبقي من بقي من البسطاء.

وأخيرًا، وصل الباحثان عن أبيهما المصاب إلى مستشفى الجامعة - قسم الطوارئ والساعة قد قاربت الحادية عشر ليلاً والمفاجأة الصاعقة لهما كانت وجود والدهما جالسًا بسيارة من أسعفه قرب باب الإسعاف دون تقديم إي إجراء طبي له أو خدمات إسعافية. وكان مثله الكثيرون ينتظرون الدور والفرج.

تمضي دقائق وعليٌ يحوقل ثم يخرج عن هدوئه المعتاد ويصيح بأعلى صوته:

- يا جماعة يا هوو.. أبي ينزف وبدأ بالإغماء اسعفونا.

لم يكترث أحدٌ لندائه حتى أن أحدًا لم يلتفت إليه لا من المسعفين ولا من المتجمهرين أمام باب الإسعاف، وكأن المنظر أصبح لا يعنيهم أو أنه أصبح عاديًّا للجميع.

لسعال أبيه الشديد ولبرد خفيف راح يلم في أطرافه، خرج عليّ من طوره مرة ثانية وصاح بأعلى صوته:

- اضطربت أنفاس أبي واشتدت آلامه واصفر وجهه أكثر ووهَن صوته وتسلل إليه الذبول وبدأ يغفو ويغيب.. أرجوكم اسعفونا !

بصوته العالي، لم يسع عليٌ إلى إثارة الشفقة أبدًا، إنما أراد إفهام من كان موجودًا من متجمهرين أمام باب الإسعاف أن لهم حقًّا وعلى طاقم المشفى واجب، مستغربًا من برودة الجميع دفع الشاب بنفسه بين الجموع حتى وصل لباب قسم الإسعاف وصاح بالممرضين:

- أرجوكم يا جماعة، أبي ينزف، ولا أحد منكم سأل واهتم؟ اعطونا شيئًا لوقف النزيف.

ببرود وبدون أن يتكلم مع علي اكتفى أحد الممرضين بإعطائه لفة صغيرة من القطن وقطعة قماشية (خرقة) لتجفيف الدم المتدفق وربط الجهة النازفة بإحكام.

عادة في أقسام الإسعاف والطوارئ لا يُقاس الوقت بالساعات وإنما بالدقائق، الدقيقة الواحدة قد تكون نقطة تحول في حياة المريض، دقيقة قد يتحسن فيها وضعه وأخرى تمضي ويمضي معها صاحبها، لذا فالعاملون بالإسعاف حركاتهم وقراراتهم وإعطاء الأولوية للأكثر حاجة أمر ضروري ومهم.

عليّ وحسن أمام باب قسم الإسعاف ينتظران بفارغ الصبر ويعدان الوقت بالثواني، تمضي الدقائق دقيقة تلوَ الأخرى والخوف يزيد عندهم، فكل دقيقة في الإسعاف تحمل في ثوانيها مفاجأة قد لا يُحمد عقباها، ساعة تأتي عليهم مثقلة بالرعب وأخرى تمضي بالخوف وهما في حالة هستيرية لا يحسدان عليها، كم يتمنيان ألا يطول بقاؤهما في المشفى ويعودا إلى البيت وأبوهما في أحسن حال.

حينما قاربت عقارب الساعة من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تكرم أحد المسعفين بإدخال المصاب أبا علي إلى غرفة المعاينة في قسم الإسعاف بعد تجاهل لحالته لعدة ساعات على باب الإسعاف دون إعطاء أي أولوية له في تقديم الخدمة الإسعافية ولمن حالته الصحية حرجة تستوجب التدخل المباشر بينما جاء بعده حالات ليست بالخطورة ذاتها فأدخلوها مباشرة وأعطوها الكثير من الاهتمام والدواء لسبب واحد ظاهر ومعروف. صاحب فيتامين "و".

في غرفة المعاينة بقسم الإسعاف، لم يلفت انتباه المرافقين لأبي علي غياب اللوازم المفروض توفرها في غرفة الفحص الأولي كجرة الأكسجين وأجهزة المراقبة الطبية لدقات القلب والضغط ومستوى الأكسجين في الدم، وعلاقة إبر السيريوم، ولم يلحظوا أن أضواء غرفة المعاينة كانت باهتة جدًّا وأن تدرجًا في الألوان موجود على الجدران من الأعلى حيث الأبيض الممشوح بسواد الدخان وخيوط العنكبوت في الزوايا إلى أخضر قاتم يعتليه ألوان أخرى نفت عن المكان أي معالم للنظافة والتعقيم بالإضافة لوجود وجوه بشرية حول طاولة الفحص بدون كمامات طبية، وأيادٍ بدون قُفازات وأشخاص بمرايل بيض وآخرين بملابس عادية وألوان متعدد، ما كان يعنيهم فقط هو إسعاف المصاب، كان عليّ يتلوى كالممغوص ويتأوه ويفرك كفيه المعروقين في حيرة شديدة كأنه في كابوس سقط في هوة ليس لها قرار.

لم تمضِ ساعة لأبي علي داخل قسم الإسعاف وقبل أن ينقلوه إلى غرفة العناية أو إلى عنبر الرجال حسب درجة الخطورة كإجراء منطقي في تقديم العلاج، حرك الرجل رأسه حتى صافحت عيناه السقف كأنه كان يرنو إلى شيء يقترب منه فتتوسع حدقة عينيه وكلما اقترب منه أكثر تتوسع أكثر ثم فجأة أغمض عينيه، غطّوا وجهه بشرشف أبيض مخبرين من معه ببرود تام أن مريضكم قد فارق الحياة.

أهتز قسم الإسعاف لصراخ عليّ وصوته العالي حينما قال:

- لا اعتراض على قضائك وقدرك يا رب، لكن بأي ذنب يُقتل أبي بطلق طائش من سلاح يحمله إنسان تافه أرعن لا يفقه شيئًا من الحياة، أيّ

مصير ينتظرنا بعد كل هذا الإهمال؟! انتظرنا أمام مشفاكم كالمتوسلين ننتظر رأفتكم بنا وأبي ينزف، لا أحد منكم استجاب لرجائنا حتى مات أبي، أين المروءة، أين المسؤولين، أين الحكومة؟!

صديق أبيه المسعف راح يهدئه ويحذره من كلمات يؤنب عليها فيما بعد فقال:

- طوّل بالك يا ابني، هذا قدره وعلينا القبول والرضا .
- هل صرنا يا عم نعيش في غابة؟
- طوّل بالك وادعُ لوالدك بالرحمة فهذا الشيء الوحيد الذي يُرضيه.
- رحمتك يا رب، مقابرنا امتلأت بالمظلومين هكذا بلا ذنب ولا سبب، مشافينا صارت لا تستوعب إلا أصحاب الياقات البيضاء والجيوب المليئة، وحبل واقعنا أصبح على جرار التردي والنكوص. سلاح أعمى بيد كل من هبّ ودبّ، هاتف محمول بيد الصغير يسب ويلعن من يريد دون أدنى احترام وتقدير لقريب أو كبير، لا قانون يتبع ولا حكومة تتدخل في وقت اختلط فيه الحابل بالنابل والغثّ مع السمين.
- طوّل بالك يا ابني، ليس الوقت والمكان المناسبين لهذا الكلام.
- للأسف اتسع القاع وطافت علينا اللعنة والملحُ فسد.
- اصمت يا ابني اصمت.
- كفانا صمتًا، وهل بعد الصمت المتكرر إلا الخرس؟!
- اخفض صوتك يا ولدي، وهل بعد طول اللسان إلا قطعه؟!
- لا حول ولا قوة إلا بالله .

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. نعم قلها من "صماصيم" قلبك واصبر. علينا أن نصبر وما الصبر إلا من عند الله، علينا أن نرفع أكفّ الضراعة بالدعاء ..صحيح أن في حضور الألم يطول الليلُ ويتأخر الشروق لكن علينا الصبر وقبول البشارة من رب العالمين، {وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}.
- اللهم اجعلنا من الصابرين المحتسبين
- أحسنت يا ولدي، هذا الكلام الصح، الحمد لله مهما صار فينا نحن شعب حيّ يُزهر أينما كان، كُن واثقًا بما قاله الشابي يومًا ما: ولا بُدَّ لِلَّيْـلِ أنْ يَنْجَلِي.. وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر
- حسبنا الله ونعم الوكيل بكل من أوصلنا إلى هذا القاع.

لحظات قليلة، نقلوا جثمان المتوفى إلى براد المشفى طالبين من ولديه تخريجه غدًا صباحًا بعد تسليمهما شهادة وفاة مسجلٌ فيها سبب الوفاة على أنه "توقف مفاجئ لعضلة القلب" كما لو أنها أصبحت نموذجًا يتطلب ممن يملؤها إضافة الاسم والتاريخ فقط.

حينما تسلم شهادة وفاة أبيه بكى علي وقال صارخًا:

- رحمك الله يا أبي، رغم أنك لم تشتكِ يومًا من الإهمال وتبدل الأوضاع العامة في البلد إيمانًا منك بأن الشكوى لغير الله مذلة، لكن ها هو الإهمال قد قتلك، ترك الحكومة لحاملي السلاح يسرحون ويمرحون دون قيود، وإهمال المشافي للبسطاء مثلنا وقلّة الخدمات المقدمة فيها.

*

رحل أبو علي الذي كان يعمل بصمت رغم كل ما عاناه في سوق الهال (مكان عمله شبه الدائم) من مصاعب يومية مع تجار الكميسيون وتجار المفرق والحمالين والباعة الجوالين وأصحاب سيارات النقل الكبيرة والصغيرة وانتقال سوق الهال من فسط حلب (وسط المدينة) في باب جنين إلى منطقة الراموسة الذي زاد التكلفة وقلل فرص العمل لطول المسافة ورفع تكلفة النقل الذي حدّ من قدوم تجار التجزئة وأصحاب الدكاكين الصغيرة من داخل وأطراف المدينة وخاصة الشرقية والشمالية منها لارتفاع أجور النقل بسبب بُعد المكان الجديد وغلاء المحروقات بعد تقنينها والحصول عليها أسبوعيًّا عبر البطاقات الذكية التي لا تكفي ليومين في الأسبوع، هذا بالإضافة إلى مصاعب أخرى نشأت جراء ذلك الانتقال منها طول الانتظار على الدور، ودفع الإتاوات للشرطة وأصحاب السطوة، وعقبة التفريغ والتحميل، واستبدال الأعراف التي كانت متبعة في السوق القديم من احتكام للرأي والحكمة إلى سلطة السلاح، وفرض الأنا والقرار الفردي، والازدحام والخدمات السيئة، والروائح الكريهة، وتراكم القمامة.

*****

رغم كل الخوف والخيبة الذي تعيشه المدينة بما فيها، مازال هنالك بائعون جائلون يبيعون السعادة قبل الأشياء، تسمع لكل صنف من مبيعاتهم نداءً خاصًّا، يبيعون خلال أيام العام كل خيرات الطبيعة من فاكهة وخضراوات، يستجرونها بالجملة من سوق الهال ليبيعوها بالمفرق لأهل المدينة في أحيائهم وحواريهم بعد إضافة هامش ربح معقول،

بائعون تختلف ملامحهم بين سمحة مرحة ذات قلب كريم تسعى بوجهها المبتسم وكلامها العذب للجذب ، ومتجهمة غاضبة نسوا أن في عبوس وجوههم الطرد، تجمعهم رغبة في الحصول على يسير من الدخل لمواصلة حياتهم دون ضير ولا انتقاص.

أيام زمان كانت صورة البائع الجوال شبه نمطية كان دكانه (حانوته) عربة خشبية بثلاثة دواليب يدفعها أمامه بإمهال، عربته تلك كانت أشبه بحديقة متعددة الزهور توجد عليها كل ألوان الطبيعة من أصفر وأخضر وأحمر، وميزان.. كان نداؤه جَهْوريًّا يصل لآخر الحارة، تغيرت الصورة فيما بعد ليصبح دكانه في سيارة صغيرة متنقلة غالبًا تشتغل على الغاز فيها الصغير والكبير بأسعار تُناسب الجميع، مع مضاعفات الحرب وغلاء الأسعار وضعف القوة الشرائية رجعت الصورة إلى ما كانت عليه ورجعت الدكاكين الجوالة إلى عربات خشبية مدفوعة أو يجرها حيوانات غالبًا ما تكون حميرًا، عربات انخفض فيها صوت البائع وأصبح واهنًا كجسده الهزيل ولسانه الفاقد لرغبة الكلام، وأصبحت ألوان المعروضات فيها باهتة لقلة عددها وارتفاع سعرها وعدم إقبال الأهالي عليها إلا لشراء اللازم جدًا منها والرخيص.

*****

قبر مجاني

لكثرة الوفيات أثناء الحرب وتنوع أسبابها احتار أهل الموتى في مدينة حلب بدفن موتاهم بعد أن قلّ اهتمامهم برسميات الدفن والعزاء وتدرجت حسب الحالة المادية من درجة المبالغة وكثرة الإنفاق عليها من حيث شراء القبور وتجهيزها واستئجار خيم أو صالات للعزاء وتحضير الطعام.. حتى وصلت خلال الحرب إلى حدودها الدنيا من دفن الميت خارج المدينة أو في المنصفات والحدائق كما رُوي في وسائل الإعلام والتواصل.

لقد غابت عن شوارع المدينة مواكب الجنائز ومئات السيارات المشاركة فيها وقل الحضور لمراسم الدفن كما قل الاهتمام بمكان الدفن. بعض من أهل المدينة من ترك أقرباءهم المتوفين بالمشفى في البرادات أو لجمعيات خيرية تتولى أمر ترحيلهم إلى مثواهم الأخير، لكن بقي الوازع الأخلاقي عند كثيرين فأبوا أن يتركوا موتاهم هكذا بدون وداع يليق بالمتوفى المسلم والشرقي حتى ولو بحدوده الدنيا رغم أن تكلفة دفن الميت الواحد بواسطة دائرة دفن الموتى التابعة لمجلس المدينة قارب الـ 240 ألف ل.س مقسمة بين سعر القبر (180ألفًا) وتكلفة الكفن (60 ألفًا).

صحيح أن أبا علي كان مستور الحال بعض الشيء ليس بالفقير المدقع الذي ينتظر وصول المساعدات والصدقات ليأكل ولا بميسور الحال الذي إن لم يعمل لشهور تستمر حياته في حدودها الطبيعية، لكنه كان من فئة البشر الذين يعيشون من كدّ يمينهم اليومي يعمل رغم

تقدمه في السن وراء مقود سيارته الصغيرة لتحميل ونقل البضائع، المهم أنه اعتاد وعائلته على حياتهم البسيطة ورضوا فيها فعاشوا الكفاف والرضا بالمقسوم. كبّر أولاده وتزوجوا من وراء تلك السيارة، خرج عنه ابنه الكبير وسكن بنفس الحي وعمل في المياومة مرة في معمل ألبسة ومرة أخرى في مذبح دجاج ومرة هنا ومرة هناك حيث تمتاز أعمال معظم شباب المدينة بالتنوع خاصّة أولئك الذين لا يملكون مالاً ولا شهادة تؤهلهم للدخول في تجارة رابحة أو وظيفة دائمة. بينما ابنه الصغير حسن الذي تجاوز الخامسة والعشرين بقي وزوجته قاطنين مع والديه في بيتهم الصغير الذي لا يتجاوز بغرفه ومنتفعاته وأرض داره 200 متر مربع لكنه يبقى كما يقولون أهل المدينة ملكًا وثروة في مدينة حلقت فيها إيجارات السكن وأسعار البيوت إلى أرقام خيالية.

بوفاة أبيهما، أصبح الشابان عليٌ وحسن أمام مشكلة جديدة لم يتعرضا لها من قبل ولم يحسبا لها أيّ حساب ولم يعيشا تجربتها من قبل. إنها مسألة إيجاد قبر ودفن أبيهما قبل غروب شمس ذلك اليوم.

لم يفكرا في شراء قبرٍ له في مقابر المدينة لأنهما ببساطة لا يملكان المال لذلك، سألا عن البديل في المشفى واستشارا من حولهما من جيران وأصدقاء وجاءتهما النصيحة التوجه إلى الريف القريب، فهنالك المقابر المجانية التي ما زال الريف السوري يزخر بها حتى أن كثيرين من أهل المدينة صاروا يقصدونها لضعف أحوالهم المادية. فأحد الموجودين في المشفى حدثهم عن تجربته منذ فترة قريبة: